۱۶۵۶۹

مجله	الازهر
تاریخ نشر	شعبان ۱۳۹۷
شماره	۶ سال ۴۹
شماره مسلسل	
محل نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	عبدالکریم الخطیب ..(دراسة وعرض ونقد : سعد ظلام)
تعداد صفحات	۱۱۶۹-۱۱۶۳
موضوع	التفسیر القرآنی للقرآن
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحظات	

التفسير القرآني للقرآن

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

المجلد الأول

الجزء الأول والثاني

دراسة وعرض ونقد

للدكتور سعد ظلام

صدر هذا الكتاب عن دار الفكر العربى ـ مطبعة السنة المحمدية ـ مارس ١٩٦٧ والكتاب واحد من خمسة عشر مجلدا ضمت تفسير القرآن الكريم .

وقد افتتح الكاتب بمقدمة تاريخية تحدث فيها عن الامة الاسلامية ، وأنها أمة القرآن وعته فرعاها وتمسكت به فأرشدها الله وأعزها ، وما نأت عن الغاية الا عندما وقعت الجفوة بينها وبين القرآن ، تلك الجفوة التي أحدثت تميعا فى العقيدة الدينية بنفس المسلم .

وقد أرجع السبب فى ذلك الى الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين ، الأمر الذى أدى الى تشعب المسائل الدينية بين الطوائف ، ثم كان التعويل على هذا التشعب والمسائل الخلافية من الأسباب التى ميعت العقيدة أيضا .

وما دام القرآن هو مصدر التشريع فلا بد من الفهم السليم الصحيح والمبنى على طول التأمل والتدبر لكل مايثيره من قضايا وأفكار ، فيكون بذلك اتصالنا الوثيق بكتاب الله وتصور مسائل الدين تصورا واضحا محددا .

وعنوان الكتاب يعطى للقارىء انطباعا معينا يفهم منه أن المؤلف يفسر القرآن بالقرآن،وخير التفسير ما فسر آيات الكتاب بآيات الكتاب .

ويفهم من العنوان أيضا أن المؤلف التزم هذا المنهج فى كتابه . ولكن قراءتك للكتاب تجعلك فى قناعة تامةأن المؤلف تناقض معنفسه أو تراجع عن العنوان والمنهج ولم يلتزم بهما ، بل ان الكاتب نفسه تعارض مع نفسه لأنه كما سبق أن ذكرت « لايفسر القرآن بالمعنى الحرفى للتفسير،انما يقرأ القرآنثم يسجل مشاعره ازاء مايقرأ » هذا من ناحية المنهج ، أما من ناحية تسجيل المشاعر ازاء ما يقرأ فلنا عليها هى الأخرى جملة من الملاحظات لأننا نلاحظ أن المؤلف أقحم مشاعره فى كل فكرة واستغرق فى دوامة الرصد والتسجيل حتى نسى الغرض الأصلى للتفسير ، وتبنى بعض الآراء ، واقتنع بها ، وألصقها بالقرآن .

وقد ذكر الكاتب فى المقدمة أن مباحث هذا المجلد هى « الجن والشيطان وابليس ــ والنسخ ولا نسخ فى القرآن ــ هكذا يقول ــ وآدم ــ مادة خلقه ــ والوصية للمتوفى عنها زوجها » .

وقبل أن يبدأ بتفسير فاتحة الكتاب أثبت مبحثا حول القرآن الكريم تناول فيه المكى منه والمدنى، وعرف كلا منهما ، وذكر السور المكية والمدنية ، وعدد آى القرآن وكلماته وحروفه .

وانتقل الى الفاتحة ، فذكر أنها مفتتح القرآن وأم الكتاب ، والسبع المثانى .

وقارن بين الفاتحة وبين ما أورده من « انجيل متى » مما سماه دعاء وصلاة ، وذكر أن هناك تشابها كبيرا فى الروح التى تستولى على الانسان وهو يتلوها خاشعا متعبدا واتخذ من هذا دليلا على أنهما من معدنواحد ، وأن متنزلهما السماء وحيا من رب العالمين(١) » .

وهو بهذا يسلم بصحة الانجيل أى « انجيل متى » الذى استشهد به ، بل وأكثر من ذلك أكد التشابه بين القرآن والانجيل فى الروح والروحانية والتأثير . على الرغم

(١) ص ٢١ ، ص ٢٢

من أن هذا النص الذى استشهد به وقدم فيه وأخر بل وغير فى بعض كلمه ، فيه اضطراب تحاشاه المؤلف حيث يذكر نفس الاصحاح من نفس الانجيل « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا » ثم يذكر بعد هذا « فانه ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى » (١) .

فقد وجد المؤلف بعض التناسب بين آية فى القرآن واصحاح فى الانجيل ، فاتخذ من هذا ذريعة الى الاعتراف بصحة هذا الانجيل والتشابه ــ على الاطلاق ــ بينه وبين القرآن ــ وأنه من عند الله ، هكذا يبنى الحكم بسرعة وبأقل مناسبة ، صحيح نحن نؤمن بالانجيل الذى نزل على عيسى ، وأن هناك قدرا من التشابه بين الكتابين يقول النجاشى : « ان هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة (٢) واحدة » ولكن يجب التريث فى الحكم وعدم اللجوء الى الجزاف والاحتمالات واحتراف التشابه حتى نحكم حكما مطلقا على كل ــ أساس الدعوى فيه جزء قليل .

وينتقل المؤلف الى أفضلية آدم فى خلافة الله فى الأرض على الملائكة ، فيعلل لأفضلية آدم عليهم ، بأن الملائكة من البهاء والصفاء والطاعة المطلقة المستسلمة التى لا تنزع عن ارادة ولا ترجع الى نظر وتقدير ، لهذا ، فهم ليسوا أهلا للخلافة ، لأن منصب الخلافة يقتضى استقلالا فى تصريف الشئون فيما هو خليفة فيه ومتسلط عليه .

والانسان بما له من عقل وارادة هو المستأهل لهذه الخلافة يتولاها عن الله ويتولى ضبط أمورها وسياسة شئونها (٣) .

وليس ذلك وحده هو السبب فى اصطفاء آدم خليفة لله ، بل هناك أسباب أخرى من بينها أن تكوين الانسان من مادة وروح ، وقدرته على المواءمة بينهما وتغليب جانب الروح على المادة وتطويعه للخير ،

---

(١) انجيل متى « الاصحاح السادس » .

(٢) من أقوال النجاشى عندما سمع سورة « مريم » .

(٣) ص ٥١/٥٢ من الكتاب .

يكون أليق بالاصطفاء مما ليست له هذه القدرة ، لأنه مركب نورانى فحسب •

وقد يكون من بين أسباب الاصطفاء أن يخطىء آدم فيكون فى خطئه تشغيل لصفة المغفرة الالهية « انى أعلم مالا تعلمون » •

ولآدم فى نظر المؤلف مفهوم مغاير لمفهوم المفسرين الذين يرى المؤلف أنهم اعتمدوا فى معرفته على الاسرائيليات وأساطير الأولين من قصة « الخلق ومكان آدم فيها (١) » •

وتعرض للجن وابليس والشيطان (٢) وعرض بعض الآيات التى ورد فيها ذكر ابليس ثم عقب عليها بأن ابليس على صفة خاصة غير صفة الشيطان والجن ، والا لما التزم القرآن ذكر ابليس فى هذه الصور المتعددة لموقف واحد (٣) •

وهذا لا ينهض دليلا أمام النص القرآنى الذى ينص على أن «ابليس كان من الجن ففسق عن (٤) أمر ربه » •

ويعرض لذكر الشيطان بلفظ المفرد والجمع فيذكر الآيات التى تدل على ذلك ، ويستنتج منها أن اللفظ فى حالتى افراده وجمعه أسماء لذات واحدة •

ويقع فى مغالطة حين يستعرض الآيات التى أمر الله فيها ابليس بالسجود لآدم ، ويستنتج منها أن ابليس كان من الملائكة (٥) وأنه كان فى درجة دنيا فى هذا العالم الروحى هى درجة الجن ، وأنه لم يظل فى جماعة الجن ، بل أخرجه الله من بينهم حين أبى أن يسجد لآدم مع الساجدين وأنه بدأ يتحول منذ حلت به اللعنة خلقا آخر ، فاذا هو شيطان مريد وشيطان رجيم •

---

(١) نفس الصحيفة السابقة •

(٢) ص ٥٦ •

(٣) ص ٥٤ •

(٤) الآية ٥٠ من سورة الكهف •

(٥) ص ٥٧ •

ثم يخلص من هذا كله الى أن ابليس من عالم الجن ثم نزل الى ابليس ، ثم تحول من ابليس الى شيطان (١) .

فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، لكن ابليس امتنع عن السجود تكبرا واباء .

ويغنيه عن هذا الاضطرار كله تفسيره الاستثناء فى قوله سبحانه وتعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس بأنه استثناء منقطع ، والاستثناء المنقطع هو الذى لايكون ما بعد « الا » داخلا فى جنس ما قبلها أو فى حكمه ، وقد أوقعه فى هذا الخلط وذاك الاضطراب جعله الاستثناء متصلا .

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن على أسلوب الاستثناء المنقطع كقوله سبحانه وتعالى فى سورة الصافات (٢) « فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين » .

و « الا » فى الاستثناء المنقطع بمعنى (لكن) ويكون المعنى

وتعرض الكاتب لقصة خلق آدم عليه السلام (٣) ، فذكر أن القرآن عرضها عرضا محكما ومع أن القرآن ليس كتاب علم ، وليس من همه أن يقرر حقائق علمية فانه فى قضية خلق آدم قد أمسك بها من أطرافها ، وجاء بها على الوضع الذى يلتقى مع الحقائق العلمية فى أصدق وجوهها وأضوئها .

ومع أن الأليق فى العقل أن تجىء الحقائق العلمية اذا جاءت مفسرة للقرآن كاشفة عن أسراره ، لا أن يجىء القرآن على الوضع الذى تخضعه للحقائق العلمية أو تلوى آية وتقسرها قسرا لتلتقى مع النظريات والحقائق العلمية .

وقد سار المؤلف مع أسلوب الحقائق العلمية وأخضع الآيات لها

---

(١) ص ٥٧/٥٨ .
(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .
(٣) ص ٥٩ وما بعدها .

حين فسر الحمأ المسنون بأنه بشائر الحيـاة اذ هو « البكتيريا » التى تولدت منها خمائر الحياة ، وظهرت فيها جرثومتها الأولى .

ويسير مع قضايا العلم وتجاربه فيخضع آى القـرآن الى حقائقـه أيضا حين يرى أن الطين الذى خلق منه الانسان قد تقلب فى أطـوار عدة ، حتى ظهـر منه الانسـان ، فهنـاك التراب ، وهنـاك الطين ، والطين اللازب ثم الصلصال ، ثم الحمأ المسنون ...

وبلغة العلم يكون التراب فالطين فالصلصال فالحمأ المسنون ، أربعة أطوار تنتقل فيها بذرة الحيـاة ويستنتج من قوله تعالى .. « ولقد خلقنـا الانسـان من سـلالة من طـين ... » بأن آدم لم يجىء من الطين مباشرة ، وانما كان ذلك بعد سلسلة طويلة من التطورات ، وبعد عمليـات معقـدة من التصـفية والانتخاب استمرت ثلاثين سـنة حتى انتهت بظهور الانسان .

واذا صـح أن التجارب البشرية فى حقول العلم ومعامله تحتـاج الى الزمن ومداومة النظـر لاستخلاص النتائج وملاحظتها من التجارب ، فالله غنى عن هـذا الأسلوب الذى لا يليق « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

هذه واحـدة ، والثانيـة أنه فى قصة خلق آدم يستخدم مناهج العلم الحديث مثل « نظـرية دارون فى أصـل الأنواع ، وفى النشـوء والارتقاء (١) » .

واخضاع القـرآن لقضايا العلم الحـديث وتجـاربه غير مقبول ولا مستـاغ ، لأنه مما يزعزع الثقـة بالنص القرآنى اذا اهتزت نتـائج التجارب ، بعد ذلك أو ثبت اختلال قانونها ، أو جاء ما ينافيها أويناقضها وكثيرا ما يحدث ذلك .. فمثـلا أثبتت أحدث المناهج العلميـة فى تفسـير قانون المـادة أثبتت أن جزئيات المـادة تنقسم الى ذرات ، وأن كل ذرة تنقسم الى اشعاعات

(١) ص ٦٤ وما بعدها .

كدليل على مصدر تلك المادة وأساس وجودها وأنها برغم كثافتها فان فى تقسيمات الذرة الى اشعاعات ما يوحى بأنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وهو مصدر الضوء •

ونحن نعتقد أن لكل علم مناهجه ، والاعتماد على النظريات العلمية فى تفسير القرآن واخضاع آيه لها غير مأمون العاقبة •

وقد أدى استخدام مناهج نقدية كالمنهج النفسى والتاريخى فى النقد الأدبى الى افساد الذوق الأدبى كله وكانت نظرية دارون من بين النظريات التى طبقت على النقد الأدبى •

والاستنتاجات التى تنشأ من مجموع العلات والتى لا تعتبر أكثر من أسباب ظنية قابلة للمناقشة لا تعطى استنتاجا حاسما ، وهذه هى احدى مخاطر المجازفة باستخدام مناهج علم فى الحكم على أفكار علم أو فن آخر •

وقد وقع فى نفس المزلق المرحوم الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » حيث طبق الفلسفة الديكارتية على الأدب الجاهلى والقرآن ، فاضطربت الأفكار بين يديه وتنافرت ، وخلط بالمنهج الديكارتى المنهج التاريخى ، فاختل ميزان الحكم فى يديه ، والأحكام الجازمة خطرة جدا فى هذه الأحوال •

وربط قضية خلق آدم بنظرية « دارون » نوع من الاحتيال لاثبات أن القرآن يساير مناهج العلم ، وهذا ما لا نسلم له به ، ولا يسلم به معنا الكاتب نفسه • حيث يذكر أن نظرية « دارون » قد يكون فيها قليل أو كثير من الخطأ فى الاستنتاج •

ولكنه يلجأ الى ذلك الربط للايهام بأن تفسيره تفسير عصرى •

(الحديث موصول)

د • سعد ظلام